﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾ [الحديد: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بـــينَ زخـــارِف الدُّنيا وابتِلاءاتِها تسليةُ القُلوب بالإيمانِ بقَضاء الـلـــه تـعـالى وقدرِهِ

الدُّنيا بما فيها من لذَّةٍ ومُتْعَةٍ حجابٌ يحولُ بينَ القُلوب وبين الآخرةِ، وهي معَ كونِها دارَ بلاءٍ وامتحانٍ، هي دارُ رخاءٍ واطمئنان، وقد اقتُصِرَ فيما تقدَّم على ذِكْرِ الرَّخاء بقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إذْ كانَ المقامُ مقامَ ترغيبٍ في الإنفاقِ، والتَّشمير لمعالي الأخلاقِ، والمسابقة إلى السَّعادةِ، فيَرِدُ سُؤالٌ عن الموانع التي تَصْرِفُ عن الخير من شدائدِ البلاء وصُروفِ القَضاء، فجاء الجوابُ مسلّيًا ومُطمئنًا للقلوبِ بقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ما يَعْتَرِضُ العبدَ من خير أو شرٍّ قد سبَقَ به القضاءُ، وجَرَت به المقاديرُ في الأزلِ، فلا جزعَ يَضُرُّ، ولا حُزْنٌ يردُّ، بل الصَّبر والرِّضا هما السَّبيل إلى بلوغ السَّعادة والظَّفر برضوانِ ذي العزَّة والجلالِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَابَ﴾: فعلٌ يدلُّ على المُضيِّ، وأصلهُ مأخوذٌ من الجذرين اللُّغويَّين: (صيب) و(صوب)، وهما يدوران على معنى القصد والإصابة، ويقال: صابَ السَّهمُ الرَّميةَ؛ إذا توجَّه إليها عن قَصْدٍ، فأصابها، ومن هذا البابِ اشتقَّت المعاني الأخرى، فالصّاد والواو والباء: أصل يدلُّ على النُّزول والاستقرار والثُّبوت، فيقال: أصابه الشَّيءُ؛ إذا نزلَ به، وأدركه، سواءٌ أكان ذلك ممّا يفرح، ويسرُّ به،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 294.

أم ممّا يُحْزِن، ويُبتلى به، ومِن ثَمَّ صار اللَّفظ يُطْلَقُ على كلِّ حادثةٍ تنزلُ بالإنسان، وتقَعُ عليه، خيرًا كانت أم شرًّا[1]؛ لِما في أصلهِ مِن معنى القصد والإصابة والنُّزول، ومعنى ﴿أَصَابَ﴾ في الآية: ما نزلَ من مصيبة إلّا وهي بقدرٍ مِنَ الله تعالى.

2) ﴿كِتَبٍ﴾: اسمٌ على وزْنِ: فِعال، وجذره اللُّغويُّ: (كتب)، والكتابَةُ معروفَةٌ، وهي النَّسخ أيضًا، ومنه: ضَمُّ الشَّيءِ إلى الشَّيء، فالأصلُ في الكاف والتّاء والباء: دلالةُ الجَمْعِ والضَّمِّ، والكتابةُ: هي ضمُّ الحروفِ بعضِها إلى بعضٍ بالخَطِّ، فالأصلُ في الكتابة: النَّظمُ بالخطِّ، ثمَّ استُعير أحدُهُما للآخر، ويُطْلَقُ لفظُ الكِتاب على المكتوبِ مِن باب إطلاق المصدر وإرادة اسمِ المفعول، كقولهم: الفِراش، ويُراد به: المفروش، فالكتابُ هو الصَّحيفة التي كُتِب فيها، والمعنى المحوريُّ للمادَّةِ: هو الإلصاقُ بقوَّة ودقَّة؛ إذْ يكون فعل الكتابةِ بإلصاقِ الكلام، وتثبيتِ حُروفِهِ في وجْهِ الحجَر أو الجلد أو غيرهما تثبيتًا يصعُبُ إزالتُه[2]، والمقصودُ مِن ﴿كِتَبٍ﴾ في الآية الكريمة: في مكتوبٍ عندَ الله تعالى قبل وقوعِها، وهو اللَّوح المحفوظُ الذي أُثبِت فيه كلُّ ما كانَ وما يكونُ[3].

3) ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾: فعلٌ دالٌّ على الحال والاستقبال، وليس في القرآن الكريم – صيغةً ومادَّةً معًا – إلّا هذه اللَّفظة، والجذر اللُّغويُّ منها: (برأ)، والبرءُ معناه: الخلق، فإنَّه تعالى بارئُ النّاسِ، أي: خالِقُهم، ومنه: البريَّة، أي: الخلق، وهذا هو الأصل في الباء والرّاء والهمزة، والبارئُ بِمَعْنى: الخالق، فهو وصفٌ مخصوصٌ بالحقِّ سبحانهُ[4]، والبريئَةُ، بمعنى: الخلق، يجوز أن تكون مهموزةً، ويجوز أن تكون مِن غيرِ هَمْزٍ، أي: البريَّة، مأخوذة من البَرى، أي: التُّراب[5]، وممّا يتميَّز البرءُ مِن سِواه: أنَّه الخلقُ على غيرِ مثالٍ، كما برأ الله تعالى آدمَ مِنَ الطّين، ولم يكُن ثمَّةَ غيره[6]، ومعنى ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ في الآية الكريمة: نَخْلُقها[7].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صوب - صيب).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كتب).
(3) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 244.
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(5) الصحاري، الإبانة في اللغة العربية: 2/ 226.
(6) الزبيدي، تاج العروس: (برأ).
(7) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 254.

4) ﴿يَسِيرٌ﴾: اسمٌ على زِنَةِ (فَعيل)، وجذره اللُّغويُّ: (يسر)، واليُسْرُ: ما كان خفيفًا ليِّنَ الانقياد سريعَ المتابعة، وهو أيضًا ما كان نقيضَ العُسْر[1]، و"الياء والسّين والرّاء أصلان يدلُّ أحدُهُما على انفتاحِ شيءٍ وخِفَّته"، ويَرِدُ اليُسْرُ بمعنى التَّهيُّؤِ والسُّهولة[2]، ويَرِدُ اليُسر بمعنى اللّيونة والسُّهولة، ومن معاني اليُسْر: أن تجري الأمورُ بسهولة من غير عوائقَ[3]، ومعنى ﴿يَسِيرٌ﴾ في الآية: "إنَّ إثباتها في اللَّوح سهلٌ على قُدْرَتِه، كلحظة، وكما كُتِبَت المَصائِب؛ كُتِبَت المَسرّات والمواهِب"[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المصائب مقدَّرة في الكتابِ المَسْطورِ

ما مِن مُصيبة تقَعُ في أرجاء الأرض مِن جدْبٍ في الأمطار، أو غلاءٍ في الأسعار، أو قلَّة في النَّبات، أو نقص في الثِّمار، ولا في أنفُسِكُم مِن أسقام موجِعَة، أو بلايا نازلةٍ، إلّا وهي مكتوبَةٌ مثبَتَةٌ في كتاب محفوظٍ، مقدَّرةٌ في اللَّوح المحفوظِ قبل أن نوجِدَ النُّفوسَ، ونَخْلُقَ الأجساد؛ إذْ سبَقَ بها العلمُ، وجرَتْ بها المقاديرُ، وإنَّ ذلك على اللّهِ جَلَّ شأنُهُ هيِّنٌ يسيرٌ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هذه الآية عمّا قبلَها:

جوابٌ سماويٌّ لخلجات النَّفسِ الأرضيَّة؛ ببيان جريانِ المَصائِب على القَضاء الأزليِّ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عمّا قبله؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا، فقد جاء جوابًا عمّا قد يَخْتَلِجُ في النَّفس بعدَ دعوةِ الآية السّابقة إلى المسابقَةِ إلى مغفرة اللّهِ تَعالى وجنَّته، فإنَّ النَّفس إذا نوديَت إلى ميادينِ الخير، قد تتساءَلُ عَمّا يَصُدُّها عنه

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (يسر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (يسر).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (يسر).
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 7/ 325.
(5) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 408 - 409.

من شدائدِ البلاء وضُروبِ المِحَن، فجاءَ الخِطاب مسلّيًا للنَّفس، مُطْفِئًا حرارةَ الهمِّ، ويجوزُ أن يكون فصلُ هذه الآيةِ عمّا قبلها؛ لكونها استئنافًا نحويًّا؛ وذلك لأنَّهُ لَمّا أمَرَهُم فيما مَضى بالمُسابقَةِ إلى مَغْفِرَتِه وجنَّته التي أعدَّها لِمَن آمَن بهِ وبِرُسُلِه؛ استأنف هنا الحديث[1]، مبيِّنًا أنَّ ما يُصيبهم في الأرض، أو في أنفسهم مكتوبٌ مقضيٌّ من قبل أن يقَع بِهِم.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَصَابَ﴾:

نـفـيٌ يُـفـيـد الاسـتـغـراقَ، فَـكُـلُّ مصيبَةٍ تحتَ عينِ القدَرِ

﴿مَآ﴾ في قول اللهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾، جاءت للنَّفي المهِّدِ لإفادَةِ العُموم[2]، وهو تعبيرٌ يفيد شمول قضائِه وقدَرِه، واستغراقه جميعَ ما يَنْزِلُ بالخلق من المصائب[3]، صغيرِها وكبيرِها، ظاهِرِها وباطِنِها.

بلاغَةُ القَصْرِ في الآية:

إثْـبـاتُ الـقـدَرِ السّابِق، والـرَّدُّ عـلـى مـزاعِـمِ المُـشْـركـيـنَ والمُنافِقينَ

في قول اللهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾... ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أسلوبُ قصرٍ بطريق النَّفي والاستثناء، وهو من باب قصرِ الموصوفِ على الصِّفة، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، والمعنى: لا تكون المصيبةُ إلّا في حالِ كونِها مثبتةً في كتابٍ سابق، لا في حالِ انتفاء تقديرِها في علم اللّه تَعالى، وفي ذلك ردٌّ صريحٌ على مزاعم المُشْرِكين والمنافقين الذين زعموا أنَّ ما يقع من موتٍ أو قَتْلٍ إنَّما هو عارِضٌ لا سَبَقَ لَهُ في التَّقدير، كما حكاهُ سُبْحانَهُ عنهُم في قوله: ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: 156]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: 168][4].

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 525.
(2) الشاطبي، المقاصد الشافية: 9/ 375.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 842.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 410.

دلالَةُ التَّعْبير بالفِعْلِ ﴿أَصَابَ﴾ مذكَّرًا دون (حلَّ) أو (نزل):

حين يعبِّر الفعلُ عَـنِ الـهَـوْلِ، فالتَّذكيرُ مُؤْذِنٌ بالقوَّة والشِّدَّةِ

عُبِّر بالفعل ﴿أَصَابَ﴾ مذكَّرًا في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾، مع جواز التَّذكير والتَّأنيث[1] في مثل هذا الموضع؛ إيماءً إلى عِظَمِ وقْعِ الشَّرِّ، وثِقَلِ أثَرِه[2]؛ إذِ التَّذكير أدلُّ على القوَّةِ والشِّدَّةِ.

دلالَةُ إيرادِ الفِعْلِ ﴿أَصَابَ﴾ ماضيًا:

ما يـقَـعُ مِـنَ المَـصـائِـب قَـد قُضيَ، وفُرِغَ منهُ

جاءَ التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿أَصَابَ﴾ دون المضارع؛ للإشارَةِ إلى تحقُّق وقوع الأمْرِ وثُبوتِه؛ إذْ قَد جَرى به القلَمُ في الأزَلِ، وثَبَتَ في الكِتاب قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ[3]، فجيء بالماضي؛ للدَّلالةِ عَلى أنَّ ما يقَعُ مِنَ المَصائِبِ قَد قُضيَ، وفُرِغَ منهُ سَلفًا.

سِرُّ حَذْفِ مفعولِ ﴿أَصَابَ﴾:

كـلُّ مصيبَةٍ في الأرضِ داخلَةٌ في الكِتابِ السّابقِ

حُذِفَ مفعول ﴿أَصَابَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾، والتَّقدير: ما أصاب أحدًا مصيبةٌ في الأرض[4]، فجاءَ الحذفُ دالًّا على العموم والشُّيوع؛ لأنَّ حذف المعمولِ مُؤْذِنٌ بالعموم، والمعنى: ما وقَعَ مِن حادِثٍ في الأرضِ، أو ما نزَلَ بإنْسانٍ مِنَ النّاس[5]، فإنَّه داخِلٌ في حُكْمِ هذا القضاء المحتوم، والتَّقديرِ السّابق.

وفِعْلُ ﴿أَصَابَ﴾ مطلَقٌ لَم يُقيَّد بمُصابٍ معيَّن مكانًا أو شخصًا؛ إذ لَم يَرِد خطابٌ مُباشِرٌ للمُخاطَبين، فدلَّ على العُموم المُطْلَق[6].

بَلاغَةُ المَجازِ في فِعْلِ الإصابَةِ:

إبـرازُ المعنويّات فـي صـورةِ المَـحْـسـوسـاتِ أعْـلَـقُ بالذِّهن وأقـربُ إلى الفَهْمِ

في قول اللّهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مجازٌ بالاستعارةِ، وذلك لأنَّه قد شُبِّهت المصيبةُ بالسَّهْمِ الذي يُرْمى به،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 111.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 294.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/ 257.
(4) الحداد، تفسير الحداد: 6/ 212.
(5) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 782.
(6) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 278.

يصيبُ ما وُجِّه إليه من غير غلطٍ، فحُذِف المشبَّه به، ورُمز له بشيءٍ مِن لوازمِهِ، وهو فعل الإصابةِ، على طريقة الاستعارة المكنيَّةِ، وفي هذه الاستعارةِ إخراجُ الأمر المعنويِّ في قالَبِ المحسوسِ؛ ليكونَ أعلقَ بالذِّهْنَ، وأرسخَ في النَّفْسِ وأقربَ إلى الفَهْمِ.

دلالَةُ استِعمالِ ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾:

﴿مِن﴾ في قول اللّهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ صلةٌ يُرادُ بها التَّأكيد[1]، فهيَ تُعَمِّق أثرَ النَّفي، وتشدِّد المعنى، وتؤكِّد نفيَ المَصائبِ عَن وقوعها عبثًا أو دون تقديرٍ؛ لدلالَةِ شُمولِ القَضاء على جميعِ المَصائِب، أي: نفي وقوعِ أيِّ نوعٍ مِنها خارجَ مَشيئَةِ اللّهِ تَعالى؛ قَصْدًا للعُموم والاستغراقِ في كلِّ جِنْسِ المَصائِب[2].

لا مصيبةَ خارجَةٌ عَن مشيئَةِ اللهِ تَعالى

سِرُّ التَّعْبير بلَفْظِ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ نكرَةً:

وردَ لَفْظُ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ منكَّرًا؛ لإفادة التَّعميم على معنى: (أيُّ مصيبة)[3]، سواءٌ ما وقع في الأرض مِن جدْبٍ أو نَقْصٍ، وكذلك ما وقع في النُّفوس من مَرَضٍ ومَوْتٍ، أو خُسران في تجارة، أو كسْبِ خيرٍ أو كسْبِ شَرٍّ[4]، فجاءت النَّكرة؛ لتشمَل جميعَ المصائب دونَ تقييد أو حصْرٍ؛ لوقوعِها في سياقِ النَّفي ﴿مَآ﴾.

النَّكرَةُ في سياقِ النَّفي دالَّةٌ على العُمومِ

سِرُّ تَخْصيصِ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ بالذِّكر، مع أنَّ الإصابةَ ترد خيرًا وشرًّا:

خُصَّت المصيبةُ بالذِّكر مع أنَّ الفعل ﴿أَصَابَ﴾ بمعنى الحدوثِ يَرِدُ للخَيْرِ وللشَّرِّ؛ لأنَّ المصائب أعظم أثرًا على النُّفوس البشرية[5]، وأشدُّ وقعًا في القلوبِ، أمّا مواقع النِّعم والإحسان؛ فقلَّ أن يلتَفِتَ النّاسُ إليها، وإن التَفَتوا إليها؛ أضافوها إلى أنْفُسِهم، وجعَلوها مِن كَسْبِ أيديهِم[6].

المصائبُ أوجَعُ في النَّفس وأثقَلُ في الأثَرِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 410.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 111.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 128.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 268، وابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 348.
(6) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 782.

دلالَةُ التَّعْبير بحَرْفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿فِي﴾ من قول الله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حرفُ جرٍّ دالٌّ على الظَّرفيَّة[1]، وفي التَّعبيرِ به دلالةٌ على عموم السّاكن والمتحرِّك في الأرض، أي: مِن مَنابِتِها ومياهِها ونحوِ ذلكَ[2].

سِرُّ ذِكْرِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مع أنَّ المصيبةَ لا تقَعُ إلّا فيها:

الانتقالُ مِنَ العامِّ إلى الخاصِّ

في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليس تقييدًا مكانيًّا محضًا، بل المرادُ به شمولُ المصيبة لكلِّ ما في هذا العالَم السُّفليِّ، وليكون ذِكْرُها تَدَرُّجًا في ذِكْرِ المصائب من العامِّ إلى الخاصِّ؛ إذْ مصائِبُ العباد في أنفُسِهم مِن جملةِ المصائب الأرضيَّة.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

استِغراقٌ لا يُبْقي موضعًا خارجَ القَدَرِ

(أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للاستغراقِ، فهي تَعُمُّ جميعَ أقطارِ الأرض وبِقاعها، فلا تخرج بقعةٌ ولا ناحيةٌ عَن سُلْطان اللهِ تَعالى وتقديره، فكلُّ مصيبةٍ تقَعُ في أيِّ مكانٍ مِنَ الأرض إنَّما هي بقدَرٍ سابقٍ مكتوبٍ.

دلالَةُ الواو في قولِهِ: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾:

عطفٌ يُفْصِح عَن شُمولِ البَلاء

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على ما سَبقها[3]، فهي تربط بين نَوعَينِ مِن المصائب: المصائبِ الخارجيَّة التي تقع في عالَم الخارِج: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، مثل الجدْبِ، والخَسْفِ، والزَّلازل، والنَّوازلِ، والمصائب الدّاخليَّة التي تقع في عالَم الذّات ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾، مِن أمراضٍ، وأسقامٍ، وأحزانٍ، وآلامٍ.

سِرُّ تَكْرار حَرْفِ النَّفي في قوله: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾:

المَصائِبُ الذّاتيَّةُ أشدُّ حُضورًا في النَّفْسِ

كُرِّرَ حرفُ النَّفْيِ في المعطوفِ على المنفيِّ في قوله تعالى:

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 223.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 294 - 295.
(3) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 472.

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لإظْهارِ الاهتمام بالمذكور اهتمامًا خاصًّا؛ إذ إنَّ المصائبَ الذّاتيَّة أشدُّ وقعًا على الإنسان، فالمَصائِبُ العامَّةُ إذا أصابَت أحدًا؛ فإنَّ تأثيرَها يكونُ غالبًا تأثُّرًا بالعَقْلِ لا بالحسِّ المباشر، فلا تُبْقي في وعيِ النَّفْس حُضورًا دائمًا[1].

سِرُّ ذِكْرِ ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ بعد قوله: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

نُصَّ على الأنفُسِ في قوله: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مع كونِ الأنفُسِ داخلةً تَحْتَ عمومها؛ وذلك لِلتَّمييز بينَ نَوعَينِ مِنَ المَصائب: المُصيبَةِ العامَّةِ التي تشمَلُ الجميعَ في فضاءِ الأرضِ الواسِع، والمصيبةِ الخاصَّة التي تَمَسُّ الفَرْدَ في كيانه المادّيِّ والمعنويِّ، وهذا التَّمييز يُبْرِزُ شُمولَ القدرةِ الإلهيَّة لكلِّ مقدَّرات الخَلْق، ويرفع أيَّ وهْم بأنَّ بعض الأحداثِ الصُّغْرى قَد تَخْرُج عَن إحاطةِ عِلْمِ اللّهِ تَعالى وقُدْرَتِه.

المصائبُ في النَّفسِ أخصُّ وأدَقُّ، ولا يخرج شيءٌ مِنْها عن عِلْمِ الله تَعالى

سِرُّ التَّعبيرِ بالأنفُسِ دونَ الأبدانِ:

عُبِّر بالأنفُسِ في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ دون (أبدانكم)؛ لأنَّ المُصيبَةَ إذا أصابَتِ النَّفسَ؛ فقد شَمِلَت الجوانبَ كلَّها، وهي: الرّوحَ والبدَنَ معًا؛ إذ النَّفس مبدأُ الإحساسِ بالألَمِ ومحلُّ الوجدانِ، فما يَطْرَأُ عليها مِن مرَضٍ أو فَقْدٍ أو حُزْنٍ أو هَمٍّ؛ فإنَّهُ أعمَقُ وأشَدُّ مِن مُجَرَّد إصابَةِ الجَسَدِ.

النَّفس مبدأُ الألَمِ ومحَلُّ الحُزْنِ؛ فالمصيبَةُ فيها أشدُّ وقْعًا

دلالَةُ التَّعْبير بالجَمْعِ (أنفُس) دون (نفوس):

جاءَ التَّعبيرُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾، بصيغة الجَمْعِ على وزن أفْعُل، وهو دالٌّ على القِلَّة[2]؛ للتَّعْبيرِ عَن مَحْدوديَّة المصائب التي تصيب النَّفس مقارنَةً بالمَصائب التي تقَعُ في غيرِها كالأرض، مثل الجَدْبِ والفاقَةِ وغيرهما مِنَ المَصائب الواسِعَة الشُّمولِ، أمّا

الإشارةُ إلى محدوديَّةِ المَصائب الذّاتيَّة أمامَ اتِّساعِ البلاءِ العامِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 410.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 3/ 224.

ما يقع في النَّفس؛ فهو أقلُّ وقْعًا على المدى العامِّ، ويشمَل الأمراضَ والفاقَة والهُموم ونحوَها[1].

والتَّعبير بـ (الأنفُس) إشارَةٌ إلى المَصائب الخاصَّة بذَوات النّاس، وهي أقلُّ مِنَ المَصائب العامَّة، كالقحط وفيضانِ السّيولِ وموتِ الأنعامِ وتلَفِ الأموالِ[2].

سِرُّ ذِكْرِ المصيبَةِ معَ أهلِ الأرضِ دونَ ذِكْرِها مع أهلِ السَّماوات:

أهـلُ الأرضِ في موضِعِ البلاءِ؛ لتعلُّقِ التَّكليفِ والاختبارِ بِهِم

ذُكِرَت المصيبةُ مَعَ أهلِ الأرض دونَ أهل السَّماوات لعدَمِ تعلُّقِ الغرَضِ بذلك، ولأنَّ ما يصيب أهلَ السَّماوات مِن مصائب قليلٌ جدًا، فلا يكادونَ يتعرَّضون إلّا لمصيبةِ المَوْتِ فحسبُ[3].

دلالَةُ تقديم مُصيبَةِ الأرض على مُصيبَةِ الأنْفُسِ:

المصائبُ العامَّةُ تُمَهِّدُ للمِحَنِ الخاصَّةِ

قُدِّمَ قولُهُ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على ﴿فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لأنَّ ما يقع في الأرض مِن كوارثَ عامَّة أشدُّ شمولًا من المصائبِ الخاصَّة بالأنفُس، ولأنَّ المصائب غالبًا ما تُصيبُ الأرضَ أوَّلًا، ثُمَّ تَنْعَكِسُ آثارُها على الأنفُس ثانيًا[4]، فيظهَرُ بذلكَ التَّرتيبُ الطَّبيعيُّ للأحداث، وتَعاقُبُ المصائب بينَ البَعيد والقريبِ.

بلاغَةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

لا تَـخْـرُج أيُّ مـصـيـبـةٍ عَـن الكِتابِ السّابقِ

﴿إِلَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ جاءَت بِمَعْنى الاستثناءِ[5]، والاستثناءُ هُنا متعلِّق بِما نفاهُ اللّهُ سُبْحانَهُ بلفظ ﴿مَآ﴾، والتَّقديرُ: ما أصاب من مصيبةٍ في الأرضِ كائنةٍ في حالٍ ما إلّا في حالِ كونِها مكتوبةً في كتابٍ، أي: مثبَّتةً في اللَّوح المحفوظ قبلَ وقوعِها[6].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 410.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 186.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 352.
(5) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2401.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 410.

دلالَةُ التَّعبير بحَرْفِ الظَّرْفيَّة ﴿فِي﴾:

ظرفيَّةٌ تُثبِتُ سَبْقَ القضاءِ

﴿فِي﴾ مِن قول اللهِ تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ حرفٌ دالٌّ على الظَّرفيَّة، وهو مفيدٌ ههنا أنَّ المصيبةَ مكتوبَةٌ في اللَّوح المحفوظِ قبل خَلْقِها[1].

والتَّعبير بـ ﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ جاء محمَّلًا بظرفيَّة ﴿فِي﴾ المُشعِرة بالإحاطَةِ والتَّمَكُّن والثَّبات، فكأنَّ كلَّ مصيبَةٍ مكتوبَةٌ مُحاطَةٌ بحُدود الكتابِ الإلهيِّ لا تتجاوَزُها، فهي ثابتَةٌ فيه قبلَ أن تطَأ عالَمَ الشَّهادَة، فالظَّرفيَّة هُنا تتجاوَزُ كونَها ظَرْفًا مكانيًّا؛ لتدلَّ على الرُّسوخ والتَّقرير.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿كِتَٰبٍ﴾:

اسميَّة تصوِّرُ ثباتَ القدَرِ وأزليَّةَ العلمِ الإلهيِّ بِهِ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿كِتَٰبٍ﴾ بالاسم دون الفعلِ، فلم يَرِد البيانُ القرآنيُّ: (إلّا كَتَبَها)، وذلك لإبراز ثباتِ الأمْرِ وإيغالِهِ في القِدَم[2]، فالاسم هنا يرمز إلى الوجود الدّائم للقدَر في عِلْمِ اللهِ تَعالى، فهو مقدَّر مُسْبَقًا.

دلالَةُ تنكيرِ ﴿كِتَٰبٍ﴾:

تعظيمُ اللَّوحِ المحفوظِ وتفخيمُ شأنِهِ

إنَّ تنكير كلمة ﴿كِتَٰبٍ﴾ عند الإشارة إلى اللَّوح المحفوظِ لا تُفيدُ الجَهالةَ، بَل هي أسلوبٌ بلاغيٌّ قرآنيٌّ عميقٌ يُقْصَدُ به التَّعظيم والتَّفخيم والتَّهويل[3]، فهو كتابٌ عظيمٌ لا يحيط به وصفٌ، ولا يُدْرِكُ كُنْهَهُ إلّا مَن أنزلَهُ.

بَلاغَةُ إيجازِ الحذفِ في قوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾:

تَنَوُّعُ الاحتمالاتِ القُرآنيَّة فيهِ ثراءُ المَعاني وتَكْثيفٌ لَها

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ إيجازٌ، والتَّقدير: إلّا هو في كتابٍ[4]، أي: إنَّ ما جَرى مِن أفعالٍ، أو ما حدث مِن قدَرٍ ليسَ عبثًا، بل هو مُثْبَتٌ معلومٌ عندَ اللهِ تَعالى، وهو اللَّوحُ المحفوظُ.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 351.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.
(3) السمرقندي، بحر العلوم: 3/ 408.
(4) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 536.

ويجوز أن يكون تقدير الحَذْفِ: إلّا في أمِّ الكتاب[1]، أي: اللَّوح المحفوظ الذي فيهِ عِلْمُ الله الأزليُّ، وتقديره المحكم لكلِّ ما كان ويكون، فجاء التَّعبير بالكتاب مرادًا به الثَّباتُ والضَّبْطُ.

دلالَةُ التَّعبير بـ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾:

سَبْقُ الذّات الإلهيَّة لكلِّ شيءٍ، وكتابَةُ مقاديرِ الخلائقِ قبل كونِها

جاءَ التَّعبير بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾، في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾؛ لإبراز أنَّ الكتابةَ حدثَت بعد أن كانَ هو سبحانه وحدَهُ لا شيءَ معَهُ[2]، فهو سابقُ الوجودَ مطلقًا، كما أنَّ في إدخال حرفِ الجرِّ تأكيدًا وتقويةً للمَعْنى، كما هو شأن (مِنْ)؛ إذا دخلَت على (قبل) و(بعد).

دلالَةُ التَّعبير بالظَّرف ﴿قَبْلِ﴾:

تقدُّم كتابَةِ مقادير الخلائقِ

في التَّعبيرِ بالظَّرف ﴿قَبْلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ إشارةٌ إلى زمَنٍ غير معيَّن[3]، ليس مرتبطًا بحدودٍ زمانيَّة مخصوصةٍ، فهو ظرفٌ يدُلُّ على التَّقدُّم الزَّمنيِّ المطلق، وقد جاءَ بيانُهُ في الأحاديث، كما في قول النَّبيِّ ﷺ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أن يَخْلُقَ السَّماواتِ والأرْضَ بِخَمْسينَ ألفَ سَنَةٍ»[4].

دلالَةُ استِعمالِ المَصدَرِ المؤوَّل ﴿أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ دون المصدرِ الصَّريح:

استحضارٌ حيٌّ لتجدُّدِ الخَلْقِ واستمرارِ القُدْرَةِ الإلهيَّةِ

الفِعْلُ ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ فعلٌ مضارِعٌ منصوبٌ بـ ﴿أَن﴾، والفاعلُ مستتر تقديره: (نحن)، و(ها) مفعولٌ به، ويأتي ﴿أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ في تأويل مصدرٍ في محلِّ جرٍّ بإضافةِ ﴿مِّن قَبْلِ﴾ إليه[5]، وقد اختير التَّعبيرُ بالمَصْدَرِ المؤوَّل ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، بدَلَ المَصْدَرِ الصَّريح (مِن قبل بُرْئِها)؛ لأنَّ المصدر المؤوَّل أبلغُ في استحضار الحدَثِ حيًّا متجدِّدًا، وهوَ يُشيرُ إلى استمرارِ القُدْرَةِ الإلهيَّة، وتجدُّد فِعْلِ الخَلْقِ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 195.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 352.
(4) رواه مسلم في صحيحه برقم: (2653).
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 525.

آنًا بعد آنٍ، واختير التَّعبير بالمصدر المؤوَّل: ﴿أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ أيضًا توكيدًا، ولإفادةِ التَّعليل[1].

دلالةُ الإضْمارِ في قولِهِ: ﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾:

شمولُ القُدْرَةِ الإلهيَّة مِن المصيبة في الأرض إلى الأنْفُس

أُضْمِرَ المفعولُ في قوله: ﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾ ولم يُظْهَر؛ إيذانًا بإحاطة المعنى وشموليَّته؛ إذْ إنَّ إضمارَهُ يَحْتَمِلُ أن يعودَ على المصيبةِ قبل خلقها، أو على الأرض، أو الأنفس[2]، وكلُّ هذه المعاني المحتمَلَة حقٌّ، ولو أُظْهِرَ؛ لانحصَرَ المَعْنى، ولم يَتَّسِعْ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بنونِ الجَمْعِ في قوله: ﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾:

تعظيمُ البَرْءِ وترسيخُ هيبَةِ الخالِقِ في فِعْلِ الخَلْقِ

النّون في قوله: ﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾ حرفُ مضارعةٍ دالٌّ على الجمعِ المرادِ به التَّعظيمُ وعظمَةُ البَرْء[3]؛ إذ يُستعمَل الجمعُ هُنا للتَّفخيم والإشعارِ بعظمَةِ الفعْلِ الإلهيِّ، وكمالِ قُدْرَته.

سِرُّ فَصْلِ قولِهِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ عمّا قبلهُ:

مِن السُّؤالِ الخفيِّ إلى الجوابِ الجَليِّ بلاغَةٌ في طَمْأنَة النُّفوس

فُصِلَ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ عمّا قبله؛ لكونِهِ استئنافًا بيانيًّا[4]، وذلك لورودِهِ ردًّا على سُؤال مستَتِرٍ في النَّفسِ، حاصِلُهُ: كيفَ يُمْكِنُ أن يقَعَ كلُّ ما يُصيب الإنسانَ في نَفْسِه أو في الأرضِ بعد أن كان مكتوبًا قبلَ الخَلْقِ؟ فجاءَ الجواب البليغ: إنَّ ذلك يسيرٌ على اللهِ تَعالى غيرُ عسيرٍ؛ ليُطمئن القلوبَ إلى قدرة اللهِ تَعالى وسُهولة تدبيرِهِ لكلِّ حادِثٍ، ويجوزُ أن يكون الفصلُ للاستئنافِ النَّحويِّ، والجملةُ مستقلَّةٌ[5]، يُرادُ بها توكيدُ المعنى وإبرازُه، ويجوز أن تكون الجملةُ فُصِلت لكمال الاتِّصال لكونِها دالَّةً على التَّعْليل[6].

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 352.
(2) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 719.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 352.
(4) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 155.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 525.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 508.

دلالَةُ التَّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

لَمّا كان إيقاعُ المُصيبَةِ في الكتابِ قبلَ أن تتحقَّقَ في الواقع متعذِّرًا على المخلوقِ إدراكُه، فهو أشدُّ الأمورِ كراهية بالنِّسبة له لوُقوفه مَع الوهم؛ أُكِّدَ هذا المعنى، فقال سبحانَه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1].

حين يعجز العقلُ عن إدراكِ سَبْقِ المُصيبَةِ، يَأتي الجوابُ الإلهيُّ مؤكَّدًا

وجملةُ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ جاءت ردًّا حاسمًا على أهل الضَّلال مِنَ المُشْرِكين وطوائفَ مِن أهل الكتابِ الذين أنْكَروا شمولَ عِلْمِ اللهِ تَعالى، وأجازوا عليه البَداء، ولشدَّة المقام وقَصْدِ تَفْنيد باطِلِهم أُكِّدَ الخبرُ بـ ﴿إِنَّ﴾[2]؛ لتَثْبيتِ المعنى في النُّفوس، وإبطالِ أوهام المُنْكِرين بثبوتٍ يقينيٍّ لا مَدْخَلَ فيه للرَّيْب.

توكيدٌ في مقامِ الجَدَلِ لتَفْنيدِ شبهاتِ أهلِ الضَّلالِ

سِرُّ التَّعْبير باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشارة في ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لما تقدَّمَ مِنْ علمِ اللهِ تَعالى بالشَّيء وكتابته له على تفاصيلِه قبلَ كونِه، ثمَّ سوقُهُ النُّفوسَ والأسبابَ إلى إخراجه بعد التَّكوين وفق ما سبَق بِهِ عِلْمُه، وكَتَبَهُ[3]، وفي هذه الإشارة دلالةٌ على ثبات قُدْرَتِه وعِلْمِه، وإحاطته بكلِّ ما يقع في الوجودِ، معَ تيسير إدراكِ المعنى للقلوبِ.

جلالةُ العِلْمِ السّابقِ والقُدْرَةِ المحيطةِ

وفي اختيار اسم الإشارة الدّالِّ على البُعْدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إيماءٌ إلى عظَمَةِ المذكور وجلالِهِ في نفسِهِ، وهو مع عَظَمَتِهِ وجلالِهِ يسيرٌ على اللهِ سُبحانَهُ.

دلالَةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَى﴾:

﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ حرفٌ دالٌّ على الاستعلاءِ، وهو يُشير إلى ما لَهُ سُبحانَهُ مِن الإحاطةِ بالقُدْرَةِ والكمالِ[4].

ربٌّ أحاطَ بكلِّ حالٍ، وأجرى القضاءَ بكمالٍ وجلالٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 411.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 295.

سِرُّ تقديمِ قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على خبرِ ﴿إِنَّ﴾:

تفرُّدٌ في التَّقدير وتميُّزٌ في التَّدبير

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على خبر ﴿إِنَّ﴾، في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لإفادةِ الحَصْرِ[1]؛ ففيهِ بيانُ أنَّ هذا التَّيسيرَ خاصٌّ باللهِ تَعالى وحدَهُ دون سِواه مُبرزًا علوَّ قُدْرَتِه، وكمالَ حِكْمَتِه في تدبيرِ كلِّ شَيْءٍ، ومطابقة القُدْرَة المُطْلَقَة للعِلْمِ الإلهيِّ.

جمالُ الفاصِلَةِ توقِظُ السّامعَ، وتشدُّ ذِهْنَهُ

وفي تقديم الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ رعايةٌ لتناسُبِ فواصلِ الآيِ[2]، فتَبْرُزُ العبارةُ بوجهٍ أقْوى، ويُشَدُّ الانتباهُ مع وضوح المعنى وسلاسَتِه، مع تعزيزِ وقْعِ التَّوْكيدِ والطُّمأنينةِ في قَلْبِ السّامِع.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿يَسِيرٌ﴾:

الكمالُ المُطْلَقُ الإلهيُّ

جاءَ التَّعبيرُ بـ ﴿يَسِيرٌ﴾ دون (هيّن) أو (سهل)؛ لأنَّ كثرةَ ما يُصيبُ الخَلْقَ في أنفُسِهم وأموالهم يسيرٌ على اللهِ تَعالى غير عسيرٍ عليه، لا كما يكونُ عندَ مُلوكِ الأرض، فإنَّ ما يُصيبُ حَشَمَهُم وخَدَمَهُم مِنَ المَصائب يشتَدُّ عليهم؛ بسبَبِ تَعَلُّقِهم بِهِم، والمنفعة والضَّرر المُتَرَتِّبين على ذلك، أمّا اللّهُ تعالى؛ فليس له في بقاءِ الخَلْقِ منفعَةٌ، ولا في ذهابهم وفنائهم مضرَّة، فكانَ ذلك يسيرًا عليه[3]، والتَّعبيرُ بهذا اللَّفظِ واردٌ للتَّقريب إلى عقولِ البَشَر؛ إذ إنَّ الله ﷻ ليس عنده صعبٌ أو هيِّن.

بَلاغَةُ خِتامِ الآيةِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾:

أمرٌ عظيم تذهَلُ عِنْدَهُ الألبابُ

خُتِمَت الآيةُ بقولِهِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وهيَ تُعْلِنُ عن أمْرٍ عظيمٍ لا تُحيط به العقولُ، بَل تَذْهَل عنده أفئدَةُ أولي الألباب، ومعَ ذلك فهو يَسيرٌ عَلى اللهِ سبحانه[4].

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 352.
(2) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 18/ 467.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 531.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 842.

وفيها تأكيدٌ أنَّ تَدْبيرَ اللهِ تَعالى لكُلِّ شيءٍ يَسيرٌ عليه، لا يُعْجِزُه شيء، وأنَّ قُدْرَتَه وعِلْمَه شامِلان لكلِّ الأحداثِ.

بلاغَةُ الاتِّفاق والاختلافِ بينَ آيةِ الحديد وآيةِ التَّغابن:

في سورةِ الحديدِ تفصيلٌ يُجَلّي الحكمةَ، وفي سورةِ التَّغابن إيجازٌ يُرَسِّخ الفِطْنَةَ

قولُ اللهِ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، وقال في سورة التَّغابُن: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: 11]، وهاتانِ السّورتانِ تَلْتَقيانِ في عددٍ مِنَ المَقاصد العظيمَةِ والجَليلة، منها ذِكْرُ خَلْقِ السَّماوات والأرض، والتَّنبيهُ على إحاطةِ عِلْمِ الله سُبْحانَه بكلِّ شيء، وإبراز ما يترتَّب على ذلك من الجزاء الأخرويِّ، وبيان خطورة فتنةِ الأموال والأولاد، وتحقيق التَّفريق بينَ ما هو باقٍ في الدُّنيا، وما هو آتٍ في الآخرة، وحقارة ما في مَتاع الحياة الزّائل، مع الإشارة إلى تفصيلِ أحوال الخلقِ ووجوب مراعاتِها في الجزاءِ.

كما احتَوَتِ السّورتان على ذِكْرِ مجموعَةٍ مِن أسماء اللهِ الحُسْنى، إلّا أنَّ ما وردَ فيهما مِن ذلكَ لَم يُجارِه غيرُهما مِن المُسَبِّحات الخَمْس المشابهة، وإن كانت سورةُ الحَشْر شاركت منه جانبًا، لكنَّها لَم تَلْتَقِ بالحديد والتَّغابن في مُطابقَةِ التَّفاصيل أو تعيينِها كما جاءَت فيهما.

وجاءَت سورةُ الحَديد أوْفَى في تفصيلِ المعاني وأعمقَ في البَيان، فجاء فيها التَّعبيرُ القُرآنيُّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، بما يوافق أسلوبَها التَّفصيليَّ وإظهار الحكمة الإلهيَّة في حدوث المصائب، ويُبَيِّن شمولَ القضاءِ وقُدْرَة اللهِ تعالى على كلِّ شيء، بينما جاءَت سورةُ التَّغابُن على جِهَةِ الإيجاز مقتصرةً عَلى القول: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، محقِّقةً بذلك الغرضَ نفسَه بطريقةٍ موجزة، دون

تفصيلِ المصائب أو توزيعها على الأرضِ والنَّفس[1]، فالتَّفصيلُ في سورةِ الحديد يُظْهِرُ عمقَ المعنى واتِّساعَ الحكمة، والإيجاز في التَّغابن يُحَقِّق تلاؤمًا مع أسلوبِها ومقاصِدِها، فيجمَعُ بينَ الإيجاز والتَّفصيلِ بحسَبِ مُقْتَضى السّياق، مع مراعاةِ الغَرَضِ مِن كلِّ سورةٍ وطبيعة خطابِها للمُؤْمنين؛ ليَبْقى كلٌّ منهما متوافقًا مع مقصدٍ عالٍ في البيانِ والإرشادِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(نبرأها) و(نخلقها):

التَّمييزُ والدِّقَّة في تقديرِ المَصائِب في الكتابِ الإلهيِّ

البَرْءُ في أصلِ اللُّغَةِ يدلُّ على التَّمييز والإبانَةِ والقَطْع، ومنه قولُهم: برأ اللهُ الخَلْقَ، أي: أبان صوَرَهُم، وفَصَلَ هيئاتِهم، ومنه أيضًا: بَرِئْتُ مِنَ المرَضِ؛ لانقطاع أسبابِه، وبرأ اللَّحمُ مِن العظم، أي: انفَصَل[2]، فالبَرْءُ إذًا أخصُّ مِنَ الخَلْقِ؛ لأنَّه لا يَقْتَصِرُ على الإيجادِ مِن العدَم، بَل يُشير إلى مرحلَةِ تَمْييز المَخْلوقِ وفَصْله بِصورَةٍ مخصوصةٍ وهيئةٍ محدَّدة.

واختيرَ فِعْلُ البَرْءِ دونَ الخَلْقِ في قولِه تَعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾؛ لأنَّ السّياقَ هنا في بيان أنَّ كلَّ مصيبَةٍ مقدَّرةٌ مكتوبة قبلَ أن تُفْصَل، وتُميَّز صورتُها في عالَم الوجود، فجاء بـ ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾؛ ليُطابِق المَعْنى؛ إذ المقصود الإشارةُ إلى لحظةِ الإبراز والتَّمييز بعدَ التَّقدير والكتابة، لا إلى مَحْضِ الإيجاد، فكان التَّعبيرُ بالبَرْءِ أبلغَ في الدَّلالة على دقَّةِ التَّقدير، وأنَّ المَصائِب لَم تَطْرَأ اعْتِباطًا، بل جاءت بعد تقديرٍ مُحْكَمٍ وتمييزٍ مخصوصٍ في عِلْمِ اللهِ تَعالى.

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 468 - 469.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 95.

(يسيرٌ) و(هيّن):

تصويرُ السُّهولةِ المُطْلَقةِ وتنزيهُ القُدْرَةِ الإلهيَّةِ

استُعمِل لفظُ ﴿يَسِيرٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ دون (هيّن)؛ لأنَّ لفظَ ﴿يَسِيرٌ﴾ أدلُّ عَلى السُّهولَةِ المُطْلَقَة التي تَجْري بغير معالجَةٍ ولا كُلْفَة، فيوحي بانقيادِ الأمورِ كُلِّها لقُدْرَةِ اللهِ تعالى؛ إذْ هو القادر على كلِّ شيءٍ بلا عَجْز، فجاءت الكلمة منسجمةً مع مقام العظمَةِ والقُدْرَةِ المطلقة، أمّا لفظُ (هيِّن)؛ فمأخوذٌ مِنَ الهَوْن، وهو ما دلَّ على الحقارَةِ والضَّعة، فيقال: هانَ الشَّيءُ، أي: صارَ حقيرًا ذليلًا، والهيِّنُ: ما لا كرامَةَ لَه[1]، ومِن ثمَّ كان اختيارُ لفظ ﴿يَسِيرٌ﴾ أبلغَ وأدقَّ؛ إذْ جَمَعَ بين معنى السُّهولة المطلقة ونفي أيِّ معالجة أو عَجْزٍ، معَ تَمامِ التَّنزيه عَن كلِّ ما لا يليقُ بكبرياءِ اللهِ سُبحانَهُ.

(1) الخليل، العين: (هون).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الستون،
سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 60 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-643-66-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 60 : المجلد الستون، سورة الحدِيد من الآية 14 إلى سورة الحَشر الآية 10.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-643-66-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5294607 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"